الإنسحوان

محمود البكر

خلعت قميصي وألقيته على كتفي، وما لبثت أن خلعت حذائي وقرنته وألقيته على كتفي ومضيت أتسكع ـ التسكع من هواياتي المفضلة، فأنا متعدد الهوايات.فمن هواياتي مثلا: الطعام إن وجد، والنوم إن استطعت ـ تخطيت أغلب الحدود بطرقي الخاصة ـ من تحت الأسلاك، مع المجارير، فوق الـ ال. . .ـ

في منطقة نائية من المدينة، شيء ما لفت انتباهي. بناء كبير. سيارات فخمة سوداء، بيضاء، زرقاء. جنود مهندمون. أوسمة. سيوف. بنادق ـ بعضهم تسلّح بقرون الثيران ـ دقات طبول. موسيقا حالمة. قلت «دعني أكسب الفرجة من هذه الدنيا الفاتنة» وهرعت راكضاً ـ أخْ. . أخْ ـ خيزرانات وسياط الشرطة تناولتني قبل أن أصل. على أرجلي، رأسي، ظهري ـ يا للوقعة السوداء ـ حاولت الهرب.لم أعرف الطريق. حاولت الدخول.«ممنوع». بضعة قروش هي كل ما تبقىٰ معي.احتضنت شرطياً ومددت يدي في جيبه «كلّها لكَ فقط دعني أتفرج» بحركة فنية دفعني إلى الداخل، فارتمى حذائي مكاني، وقفزتُ باتجاه أقرب كوّة يمكنني التسلل منها، قبل أن أختفي داخل المبنى ألقيت نظرة إلى الوراء ـ مسكين حذائي يجلدونه بالسياط والهراوات بدلاً عني. صبراً يا صديقي. غداً تُكْتَبُ في سجل الخالدين ـ ولما كان أمر الاعتقال قد صدر فوراً بحقي، فقد أخذوه مقيّداً ـ بدلاً عني ـ ليودعوه السجن. كدت أضحك إلا أنني كممت فمي حالاً: «لا تجلب البلاء الى نفسك» لكنني عدت الى الضحك وأنا أتصوره معلقاً على حبل المشنقة «رحمة الله عليك يا حذائي البريء المسكين».

قاعة كبيرة جداً، حشد كبير من الرجال، بعضهم أرخى لحيته: «هل هو مؤتمر قمة عدم الانحياز؟ الأزياء والوجوه تشير إلى أنه مؤتمر أفروآسيوي» جلال غير عادي يخيّم على المكان حركات جادّة متأنية، كل وفد وضع علم بلاده على طاولته.رفعت رأسي، كدت أصفّق: «الدول العربية في المقدمة» تقدّمت أكثر: «الأمر هامّ وحقّ رأسي» أخذت أتلصص ـ التلصص من هواياتي. نسيت ان أقول ذلك ـ ماهذا؟ طاولة مستديرة فخمة، في الوسط، أُثْبِتَ فوقها عمود على شكل صليب، وقد سُتِرَ بقماش حريري. فجأة وقف أحد الرجال وقال: «باسم الحرية والعلم والإنسانية،باسم الشعب نبدأ البحث والعمل» تصفيق. أمسك بيده الستارة الخضراء وأزاحها. «ما هذا؟» رجل عار تماماً قد صُلب فوق الطاولة: «من يكون هذا المحكوم عليه؟» حاولت التعرّف .شعره يشير إلى أفريقيا. وجهه المعذّب يشير إلى أنه من بلاد السند ـ هند، أو ما جاورها، لسانه الذي لا يدخل في فمه، ولون عينيه المزدوج ـ أو قل المتناقض ـ وظهره المكسور، كلها تشير إلى أنه عربي.

إنهم علماء إذن .ولكن أيّ بحث يريدون؟ هذا عالم البيولوجيا ـ كما كُتب على صدره ـ يتقدم وينقر على رأس المصلوب بعصا ويقول: «رأس هذا الكائن غير مناسب، يجب أن يكون أصغر بكثير حتى يتناسب مع الأوضاع والقوانين السائدة».

وعقّب خبير بشؤون التغذية: «هذا صحيح. فرأس مثل هذا يوحي بأنه يفكر، والتفكير بحاجة إلى ملايين الحُريرات، والحريرات مصدرها البروتين والبروتين غير متوفّر إلا بقدر، وهذا القدر يحتاجه أولاد الدولة. وهؤلاء العامة يزاحمون أولاد الدولة عليه. لذلك يجب أن تفصّل له رأساً لا يحتاج إلى بروتين».

وأضاف عالم بشؤون الحيوان، وقد أمسك بيده مؤشراً وهو ينقر على ظهر المصلوب: «هذا الظهر غير مناسب. يجب أن يكون أعرض، وعموده الفقري أقوى وأطول ـ وكأنه نسي ـ آ. . واليدان يجب أن تكونا أطول وبشكل متناسب مع الأرجل، وبذلك يمكن تحويله إلى ذوات الأربع بسهولة عند الحاجة،وعندها يمكن أن يحمل أكثر من البغال، ويمتاز عن البغال والحمير والثيران بأنه بأمكانه أن يحمل الأثقال، ويُنزلها عن ظهره بمفرده ودون مساعده».

أرتفعت أيدي العلماء جميعاً بالتصفيق.

لكن خبيراً بشؤون تغذية الحيوان، تقدّم مضيفاً: «وهنا مشكلة غذائية كبرىٰ. فما هو الطعام المناسب لهذا الكائن الجديد؟ فهو يحتاج إلى كمية كبيرة من الطعام،وهذا يعني أنه سيحدث أزمة هائلة في الخبز ونحن نعاني من ذلك أصلاً». ـ ما الحل؟ هتف العلماء متسائلين. فقال الخبير الغذائي: «الحل الوحيد أن نطوّر جهازه الهضمي حتى يصبح ذا فعاليّة كبيرة، يمكّنه من هضم أي طعام ـ أو بكلام أدق، أي علف ـ يُقدم له، فعند تباشير أزمة الخبز يمكن أن يُقدَّم له عوضاً عن ذلك التبن والقش، وأوراق الأشجار والحشائش، وبذلك يمكن لأولاد الدولة التمتع بأشهى أنواع الخبز والبقلاوة، وبقية أنواع الحلويات اللذيذة دون مزاحم».

تصفيق حار، وابتسامات عريضة على وجوه العلماء الأكارم وم يتبادلون نظرات الإعجاب لهذا النصر العلمي العظيم، لكن السيكولوجي رفع يده قائلاً: ـ «نسيتم يا أصحابي أنه في هذه الحالة سيحتجّ ويتذمر، وقد تخرج جموعه بمظاهرة كاسحة تخرب كل شيء، ولما كان جلد هذا الكائن الجديد صفيقاً جداً، فإن هراوات أولاد الدولة لن تؤثر فيه وبذلك يهدّد الأمن».

ساد هرج ومرج. وقال أكثر من واحد: «صحيح.. صحيح. لكن ما الحل؟». فأجاب السيكولوجي: «الحل عندي أن تكون جملته العصبية غير حساسة. أن تكون صفيقة مثل جلده. يجب التركيز على مراكز الإحساس في الدماغ وطمسها، واجتثاثها، وعندها يكون هذا الكائن الجديد عديم الإحساس لا مبالياً، لا يعرف الغضب، ولا يبحث عن السعادة، ولا يسعى نحو الأفضل. وهذا هو الإنسان الأفضل في عالمنا نحن، وعندها نضمن لأولاد الدولة، السيادة والسعادة والرفاه».

عضضت على أسناني: «ملعون أيها السيكولوجي» تصفيق ـ ابتسامات رضى على الوجوه.. هذا عالم آخر يرفع يده قائلاً: «إن تسمية إنسان لهذا الكائن غير دقيقة، وغير علمية، وبعيدة عن الصحة؛ لذا أقترح أن نسميه «الإنسحيوان» ـ جميل.. جميل.. قال ذلك العلماء، بعد أن ران تصفيق، لكن خبيراً بالاقتصاد رفع يده وقال:

ـ اتفقنا أن هذا الإنسحيوان هو من ذوات الأربع ،وهذا يعني أنه بحاجة إلى زوجين من الأحذية وهذا سيكلفنا الكثير من المال إذا أردنا أن نلبس كل بني الإنسحيوان.

فرد عالم آخر: «أقترح أن يكون الأنسحيوان قابلاً للطي.. أعني إذا كان الحمل يستوجب المشي على أربع، أحنى ظهره وأنزل يديه، وبعد إنزال الحمل بإمكانه الإعتدال، ورفع قوائمه الأمامية، أو الخلفية ـ لا فرق ـ والاكتفاء بالمشي على رجلين اثنين»

صفّق العلماء لهذا الاقتراح، لكن الخبير الاقتصادي قال: «هذا جميل.. لكن ستبقى هناك نفقات كبيرة من جرّاء استعماله الحذاء».

فقال أحد العلماء بعد تفكير: «وجدتها»

ـ ماذا؟. (قال العلماء مستفسرين فقال):

ـ نتركه يسير حافياً بعد التعديل بشكل القدم، وعندها تتحول قدمه إلى منسم، ومع الزمن يصبح المنسم وراثياً».

صفق العلماء بحماس لهذه الفكرة معتبرينها نصراً علمياً أضيف إلى انتصاراتهم. لكن أحد العلماء رفع يده بوقار قائلاً:

ـ «إن المنسم لا يتناسب والإنسحيوان لأن أغلب بلادنا جبال ووعر ولم تعرف الطرق للآن، وفي مثل هذه التضاريس يكون الحافر هو الأنسب». «أولاد الـ.. يتفننون باختراع الأفكار الشريرة». ساد القاعة هرج بعد هذا النقد الذي وُجّه إلى «نظرية المنسم» حتى قطع أحدهم الضوضاء قائلا: ـ «هذا صحيح. فالحافر هو الأنسب للإنسحيوان».

لكن عالما آخر أخذ يمسح على لحيته المكفكفة الشقراء، فتنحنح فانتبه الكل ناحيته فقال: «الحمد لله الذي هدانا بعد جهد طويل.أما بعد أيها السادة المحترمون فالحافر هو الأنسب. هذا صحيح. لكن ألا ترون معي انه قد يؤذينا ـ نحن أولاد الدولة ـ إذا رَفَس؟».

ساد القاعة هرج مرة أخرى، وتبادلوا النظرات. لكن مروّض الوحش حسم الموقف بقوله: «مهلاً أيها السادة المحترمون. لا يهم إن كان حافزاًأو منسماًأو ظلفاً أو مخلباً أو مزيجاً من ذلك كأرجل السلحفاة، فإن ترويضه ليس مستحيلاً. اعتبروا هذه المسألة محلولة».

ـ أحسنت.. أحسنت. قال جمهرة العلماء، لكن خبيراً اقتصادياً رفع يده: اسمحوا لي أيها السادة أن أثير موضوعاً يمسّنا جميعاً، فالإنسان المعدل أو «الانسحيوان» المقترح سنستعمله كأداة انتاج، وجسمه الكبير وعمله الدؤوب سيتطلبان كمية كبيرة من القماش لكسوته، وهذه الكمية نحن بحاجة إلى تصديرها، فيجب أن تؤخذ هذه الناحية بعين الاعتبار»

سادصمت مطبق.حتى رفع أحد العلماء يده:

ـ «أيها السادة المحترمون. إن الإنسحيوان الذي سيتم إنتاجه ـ بمساعدة الانتخاب العكسي ـ ذو جلد صفيق وهذا يعني أن إحساسه بالبرد سيكون أقل من إحساس الإنسان، ويمكن أن نعطيه بعض الهرمونات ذات الفعالية العالية في زيادة غزارة الشعر وطوله، ومع الزمن يصبح الأمر وراثياً، وكذلك يمكن أن تزاد الدهنيات في علفه وبذلك يكون الإنسحيوان بغنى عن اللباس تماماًوبذلك سنوفر مبالغ طائلة، يمكن أن يتبجح من ورائها أولاد الدولة».

تصفيق لهذا النصر العلمي المبين. لكن السيكولوجي رفع يده: ـ هل نسيتم أيها السادة أن العوامل الجوية من برد وحرارة، و... ليست الدافع الوحيد لاتخاذ الإنسان اللباس، فهو يلبس الثياب لإخفاء بعض المواطن غير الجميلة في جسده، وقد يلبس ليزيد من محاسنه،وقد يلبس من قبيل العادة، فيجب أخذ العامل النفسي بالحسبان»

ـ ما العمل؟

قال ذلك البيولوجي. فأجاب السيكولوجي بهدوء:

- نصنع له ذيلاً.

نظر العلماء في وجوه بعضهم بعضاً. وتساءل أحدهم بعد فرقعة الضحكات:

- وما فائدة الذيل في ذلك؟

فأجاب السيكولوجي وهو يرسم ابتسامة ثقة على شفتيه:

- إن الذيل سيُقنع الإنسحيوان بشكل غير مباشر بحيوانيته حتى وإن طفرت عنده بعض المشاعر الإنسانية، وإنه كذلك أقل درجة من الإنسان، ومن هنا، لن يحاول بعد ذلك حتى التفكير باستلام سلطة أو حتى بالمساواة مع أولاد الدولة، واقتناعه بحيوانيته سيدفعه إلى إهمال عادة اللباس، وهذا ما نسعى إليه».

تصفيق حادّ - آه ما ألعنك أيها السيكولوجي! لقد التهبت أيدي العلماء بالتصفيق لهذه الفكرة. وصعد أحد العلماء، وكان وقوراً، ووقف في منبر الخطابة - إنه يمسح على لحيته، ماذا سيقول - :

- «أيها السادة العلماء. لقد انتهينا من وضع الإنسحيوان كفكرة وما علينا إلا التطبيق، فننتج إنسحيواناً بشكل تجريبي أولاً، ثم نلقيه في السوق والمجتمع»

- ويلك يا من وقعتُ في يد هؤلاء اللئام - تسللتُ في الزوايا المظلمة - أين أنت يا نافذة؟ - إنها هناك. أخشى أن يبدأوا بي فيعدلوني. لففت قميصي على جسدي جيداً، وتهيّأت. «بأي رِجْلٍ أبدأ الركض؟ هيا هيا ١-٢» كالسهم انطلقت، لم يفق رجال الحرس إلّا وقد قطعتهم بعيداً. ركضوا: - قف.. قف..

تضاعفت سرعتي - إلحقني إن كنت لاحقاً - ركضت، ركضت، ركضت، ثقلت قدماي. نظرت خلفي، أمامي، يميني، يساري. لا أحد. نظرت جيداً. إنني في الصحراء، شعرت بالارتياح والثقة، فبلعت ريقي الجاف وأسندت ظهري إلى جذع نخلة، أستريح واستجمع قوتي.

دار الآداب تقدم

غائب طعمة فرمان

في روايته الجديدة

ظلال على النافذة

و « ظلال على النافذة » هي الرواية الخامسة لهذا الروائي العربي العراقي ينحو فيها منحى يختلف بشكله الفني عن رواياته السابقة • انها رواية بثلاث طبقات مشحونة بلحظات التوتر لاختيار الموقف، حتى ولو كان يمر عبر المعاناة والعذاب والتضحية • والصدق مع النفس يبدو، أحيانا، الشاهد الوحيد على هذه التضحية • و « الضمير » الذي يبدو، في روايات غائب كلها، البطل الحقيقي والخفي، يسيطر هنا على الرواية بكل ما فيها من آلام • انه صنو الصدق مع النفس، انه التاريخ الحي للانسان •• انه الذاكرة التي لا تمحى!

ان « ظلال على النافذة » رواية تشدك اليها، لأنها مكتوبة بصدق واقعي وفني عميق • انها شهادة أخرى من شهادات غائب طعمة فرمان •

صدرت حديثا